

المحاضرة الثانية: الوظيفية الجديدة جيفري ألكسندر... نيكولاس لومان.

أولا-التعريف بالوظيفية الجديدة:

تعتبر الوظيفية الجديدة **Neofunctionalism** تطورا نظريا لما يمكن أن تقدمه من أفكار ثقافية وعظيمة حول كيفية عمل المجتمعات، ولماذا توجد المؤسسات والأعراف؟ خاصة مع الجهود التي بذلت ولا تزال تبذل في إعادة بناء الوظيفية على المستويين النظري والإمبريقي، ونقد وإعادة تفسير طروحات بارسونز، وقبول تصنيفاته على أنها أدوات مساعدة على الوصف، والتخلي عن فكرة النظرية التفسيرية، للتغلب على بعض نقاط الضعف في الوظيفية، وتثبت لنفسها مكانا دبت فيه الحيوية بظهور واستكمال مشروعها في الثمانينات والتسعينات من القرن الماضي، كما اعترف بذلك **جيفري ألكسندر Jeffrey C. Alexander** في كتابه الموسوم بـ **"الوظيفية الجديدة وما بعدها Neofunctionalism and After"**، كاستجابة للتغيرات الموضوعية في الحياة الاجتماعية، ونتيجة لتطور المعرفة في علم الاجتماع، والحديث على ما بعد الحداثة.

حيث ظهرت الوظيفية الجديدة كحركة توليفية، تحاول التوفيق بين النظريات بعيدة المدى والنظريات قصيرة المدى، بهدف تقديم وصف عام للعلاقات المتبادلة، متجسدة في فكرة التوازن بوصفها نقطة مرجعية، وليست بوصفها شيئا موجودا في الواقع، فالتوازن هو دائما توازن متحرك، وهذا ما يفسر استعمال مفهوم التوازن الدينامي، واعتباره من أهم المفاهيم عند الوظيفية، وإعادة ربط المستوى النظري بنتائج الدراسة الميدانية، كنقطة مهمة في التجديد في الوظيفية، تبين لنا إمكانية الانفتاح على وظيفة **بارسونز**، وتمديد وتوسيع طروحاتها لتشمل تماثل القوة وتفاضلاتها، وما ينشأ عنها من تغيرات وصراعات باعتبارها إحدى الجوانب في الواقع الاجتماعي التي تتكامل مع افتراضات التكامل والتوازن، إلى جانب احتواء الاتجاهات السوسيولوجية، كالتفاعلية الرمزية والاختيار العقلاني والظاهراتية وعودة الفاعل، الأمر الذي يعتبر مفيد وينطوي على ثراء عظيم، كما يؤكد على ذلك المنظرين الوظيفيين الجدد وعلى رأسهم **ألكسندر جيفري** قائد الوظيفية الجديدة، الذي عمل على تفصيل الميول والغايات المتنوعة للوظيفية الجديدة على الوجه الآتي:

- إنها من أجل إيجاد وخلق شكل من الوظيفة متعددة الأبعاد، وتتضمن مستويات التحليل بعيدة المدى إلى جانب مستويات قصيرة المدى.
- من أجل دفع الوظيفية إلى ترك ورفض تفاؤل بارسونز بالحداثة.
- مناقشة التوجه الديمقراطي الضمني في التحليل الوظيفي.
- استدماج منظور الصراع
- استدماج الإبداعية التفاعلية والتأكيد عليها .

للتأكيد على ما هو غير متوقع **Contingency** (غير مؤكد الحدوث) والإبداعية التفاعلية. وعلى الرغم من ذلك، ثمة أنواع من المشكلات المتداخلة تحتاج إلى إجابة من قبل الوظيفيين الجدد ومنها: كيف يمكن للباحثين أن يصفوا بصورة جيدة العلاقة بين الصراع، أو ما هو غير متوقع الحدوث والنظام الاجتماعي؟، وإلى أي مدى يمكن إعادة صياغة تأكيد بارسونز على العلاقة بين الفعل الاجتماعي والنظام الاجتماعي من أجل تكوين البحث الإمبريقي؟ في الثمانينات والتسعينات من القرن الماضي كان المساهمون في الوظيفية الجديدة في الولايات المتحدة، بالإضافة إلى **جيفري ألكسندر** هم: **بول لوكومي**، **أودين جيرشتين**، **ومارك جولد** و**فرانك لشنر**، و**ديفيد سيولي**، و**نيلمسملسر**، وفي ألمانيا: **نيكولاس لومان**، و**رتشارد مونش**. وسنحاول فيما يلي استعراض باختصار لأعمال **الكسندر** و**سملسر** و**لومان**.

ثانيا-الوظيفية الجديدة عند جيفري ألكسندر Jeffrey Alexander:

يعتبر جيفري ألكسندر من ألمع أتباع المدرسة الوظيفية الجديدة عندما اعترف في كتابه الموسوم بالوظيفية الجديدة وما بعدها **Neofunctionalism and After**، بأنه يعتبر مشروع الوظيفية الجديدة قد

انتهى، ويوضح بأن الانتقال من الوظيفية التقليدية التي أعيد بناؤها قد اكتمل، لأن شرعية بعض اهتمامات بارسونز المركزية قد رسخت وتماشت، ومن وجهة نظر الكسندر، فإن الوظيفية الجديدة نجحت في تحقيق الاعتراف لبارسونز كواحد من أعلام علم الاجتماع الكلاسيكيين، وهذا يعني أن الموقف النظري لدى بارسونز، رغم بروزه وتفوقه تاريخيا، لن يسيطر على الأعمال النظرية المعاصرة، ويضيف الكسندر بأن أفكار بارسونز "لا تقل أهمية عن بعض الانجازات الحاسمة لدى منظرين كلاسيكيين آخرين.

ومن جهة أخرى، يتمسك الكسندر بنظرته إلى الوظيفية باعتبارها "تيار حيوي في الأعمال المعاصرة، وأنها تمثل خيطا قويا في نسيج الحركة النظرية الجديدة، بالإضافة إلى ذلك، يتوقع أن تستمر الوظيفة الجديدة في إنتاج دراسات سوسيولوجية خلاقة وهامة، ولكنه يؤكد بأن النجاح الأساسي للوظيفية الجديدة تقع ما وراء نطاقها كذلك. وفي مؤلفه الضخم "المنطق النظري في علم الاجتماع Theoretical logic in sociology سنة 1984، يذهب إلى أننا لابد أن نأخذ بالاعتبار ثلاث مجموعات من التقابلات:

- التقابل بين النظرية والواقعة (البعدين الميتافيزيقي والعيني لعلم الاجتماع)؛
- التقابل بين الإرادة الفردية والهيمنة الجماعية؛
- التقابل بين الفعل المعياري والفعل اللاذاتي.

وقد زعم في مجلده المذكور، أن بارسونز كان يميل إلى دمج ما هو عيني وما هو نظري، ويتجاهل مسألة القسر الذي يمارسه المجتمع لفرض المعايير والقيم، فضلا عن النواحي المادية للفعل، وتكمن ميزة الكسندر في كونه واع لكل تلك الأبعاد. ولذلك فهو يقدم منطلقا مقبولا لنظرية سليمة، تقدم وصفا عاما للعلاقات المتبادلة، مستخدمة فكرة التوازن بوصفه نقطة مرجعية، وليس بوصفه شيئا موجودا في الواقع، فالتوازن هو دائما توازنا متحركا، وهذا ما يفسر استعمال مفهوم التوازن الدينامي، واعتباره من أهم المفاهيم عند الوظيفية الجديدة. التي تتميز كذلك بفكرة أو خاصية التعدد في أبعاد النظرية الاجتماعية، وما يجب أن تفعله، كحركة نظرية جديدة تتجاوز إعادة بناء النظريات الموجودة أصلا إلى صياغة نظريات جديدة، ويرى الكسندر أن الأمر الذي حرض هذه الحركات، يتمثل في انبثاق نظريات متولدة سياسيا مثل: النسوية، والتعددية الثقافية، المجتمع المدني، وما بعد الاستعمارية

حيث ينظر الكسندر في كتابه الحديث الموسوم بمعاني الحياة الاجتماعي: علم الاجتماع الثقافي The Meaning of social life: Acultural sociology، إلى الثقافة باعتبارها متجسدة في كل من المؤسسات الاجتماعية والشخصيات الإنسانية، ويستخدم سلسلة من الدراسات الإمبريقية، تمتد من الهولوكوست Holocaust إلى ووترجيت Watergate، ليوضح كيف أن الأنماط العميقة للمعنى يمكن أن تساعدنا في فهم قوة العنف والانحلال، وكذلك استمرارية وجود الأمل. وينظر الكسندر إلى أعماله، باعتبارها تمثل مساهمة في الحركة النظرية الجديدة، ويعترف بأنه قد تحول عن إتباع بارسونز بتجاهله النظام في حياة الناس، وكذلك بالتنظير ضمن النظريات السوسيولوجية قصيرة المدى على نحو أكثر وضوحا ومباشرة. ويوضح هذا الأمر أعماله الجديدة التي قدمها حول الفعل، فبينما نظر بارسونز إلى الفاعلين باستمرار على أنهم يمثلون مفاهيم تحليلية، عرف الكسندر الفعل باعتباره حركة لأشخاص حقيقيون، وفعالون ويتنفسون، وهم يشقون طريقهم عبر الزمان والمكان. بالإضافة إلى ذلك عندما يؤكد الكسندر، بأن كل فعل يتضمن بعدا من أبعاد الإرادة الحرة، أو القوة Agency، فإنه بهذا الإجراء يمد نطاق الوظيفية لتشمل بعض اهتمامات التفاعلية الرمزية.

ثالثا-الوظيفية الجديدة عند نيل سملسر N.Smelser:

يعتبر نيل سملسر؛ أحد ممثلي الوظيفية الجديدة، الذي يقر إلى جانب غيره بفكرة التوازن الدينامي، وإن كانت حالة الحركة أو التغيير بالنسبة للبناء الاجتماعي، هي حالة غير سوية أو على الأقل غير دائمة، حيث ظهرت إسهاماته مع كتابات بارسونز، والتي نشرت في كتاب مشترك عن الاقتصاد

والمجتمع society and Economic، حيث أعطى سملسر دورا بنائيا وظيفيا للنسق الاقتصادي، لا سيما عند مناقشته قضايا التوازن واللاتوازن، التي قد تحدث نتيجة لزيادة معدلات المنافسة، وعدم الاستقرار الاقتصادي والاحتكار، وغيرها من مظاهر سلبية تستلزم بدورها العديد من الإجراءات التي تسهم في تحقيق التكيف والتكامل، سواء من ناحية تحديث النسق الاقتصادي ذاته، أو غيره من الأنساق الاجتماعية الأخرى مثل النسق القانوني، والسياسي والتعليمي، بالإضافة إلى ذلك حرص سملسر على مناقشة قضايا النمو والتغيير، نحو النظامية في ضوء معالجته للنسق الاقتصادي أو علاقته بالأنساق الاجتماعية الأخرى، وبعيدا عن الاعتماد كلية على النظريات النفعية أو السلوكية أو الحتمية بصورة عامة .

حيث يركز على ضرورة تحديث الوظيفية، من خلال تطوير مجمل الافتراضات والمسلمات الأساسية، التي تقوم عليها بوصفها نظرية سوسيولوجية علمية. بالإضافة إلى نوعية الأطر أو المداخل البحثية المنهجية، التي رأي سملسر من الضرورة تحديثها، وذلك في إطار ما أسماه بالمطالبات أو المستلزمات الوظيفية لتحديث الوظيفية، حيث اهتم سملسر بموضوع الاجتماع أو الاتفاق Approach consensus في دراسة مشكلة التغيير الاجتماعي، وتركيزه بصورة خاصة على مناقشة مفهومات النسق الاجتماعي Social system، والاختلاف البنائي structural Differentiation، وذلك لتحديث العديد من الأفكار الوظيفية التقليدية أو المعاصرة، وخاصة فكرة التوافق التكيفي Adaptive Adjustment التي تحدث في المجتمع، ولا سيما النسق الاجتماعي يسعى دائما إلى تحقيق هذه الفكرة أو العملية بصورة ذاتية، وذلك من أجل تحقيق حالة التوازن Equilibrium، التي تهدف بالدرجة الأولى إلى التحكم أو التغلب والسيطرة على عناصر التوتر، التي تؤثر على طبيعة بناءاته، واتجاه نحو الاستقرار Stability والتكامل Integration، وتحليل النسق القيمي يمكن أن يحدد طبيعة اتجاهات ومعدلات التغيير، كما أن هذا النسق يمكن أن يتغير بدوره، ولكنه يتغير بصورة طبيعية مقارنة بالتغيير الذي حدث في البناء الاجتماعي، ومن هذا المنطلق يصبح النسق القيمي نوع من البناءات الثابتة، التي لا تتغير كثيرا عند حدوث عمليات التغيير، وما تبعها من مظاهر الاختلاف البنائي حتى خلال فترة زمنية معينة.

وبالطبع؛ إن هذا الإطار التصوري الذي طرحه سملسر، يوضح مدى اهتمامه بالأفكار العامة التي تبنتها الوظيفية ككل، إلا أنه حاول أن يربط بين هذه الأفكار ومدى تبني المداخل السوسيولوجية المنهجية الحديثة، وذلك من أجل تطويرها وتحديث التحليلات التطبيقية ككل، ضمن دراسته عن التغيير الاجتماعي في الثورة الصناعية.

كما قام سملسر بتأسيس مفهوم التضارب أو ازدواجية المعنى Ambivalence، كعنصر أساسي من أجل فهم سلوك الفرد، والمؤسسات الاجتماعية، والظروف الإنسانية بوجه عام، بالمقارنة مع بارسونز وميرتون، فإن منظور سملسر، يركز على نظرية التضارب (الاضطراب) عند فرويد، وكما يوضح سملسر فإن طبيعة التضارب تقتضي أن تتشكل (توجهات مؤثرة متضاربة) إزاء نفس الشخص، أو الموضع أو الرمز ويتمثل السبب وراء بحث الناس عن طرق لتجنب خبرة التضارب وازدواجية المعنى، أنه يمثل خاصية ذات قوة، ومتواصلة، وغير قابلة للحل، وسريعة الاستئثار وقابلة للتعميم، ومنتجة للقلق في الطرف الإنساني . وفي تطبيقه لفكرة التضارب، يشير سملسر إلى الظواهر من قبل الموت، والفصل والتقاعد، والابتعاد عن المجتمع، ومع ذلك يرى أن مبدأ التضارب أكثر قابلية للتطبيق، ضمن نطاق المواقف التي يعتمد فيها الأشخاص على بعضهم البعض، مثل المحبين والوالدين والأصدقاء.

يجادل سملسر بأن أنماط معينة من التنظيمات، يكون فيها الأفراد مقيدين بالالتزامات الشخصية والمؤسسية، على غرار المؤسسات الكلية، عند جوفمان Goffman تغرس بجذور التضارب، والسياسات القاسية، وعلى سبيل المثال يشير سملسر إلى الأقسام الأكاديمية، حيث يكون الناس مقيدين فيها بالتثبيت، تثبيت الأستاذ أو المدرس بعد فترة من الاختبار والنضال من أجل التثبيت، ويستطيعون الخلاص منها فقط بكلفة عالية إلا إذا كانت لديهم فرصة أكثر جاذبية، ويضيف على الناس أن يعيشوا مع بعضهم البعض، لكن هذا لا يعني أن عليهم أن يحبوا بعضهم البعض، بل خلافا لذلك هذا يتضمن أنهم يحبون بعضهم ويكرهون

بعضهم كذلك. وقد عمل سملسر مؤخرا على منظور الجرح الثقافي ، أو الإيذاء الثقافي Cultural Trauma ، الذي عرفه في محاضرة ألقاها في الأكاديمية القومية للعلوم في 29 أبريل 2002 بأنه: عندما يشعر أعضاء جماعة (مجموعة) أنهم تعرضوا لحادثة مريعة تترك علامات يتعذر محوها، من وعي جماعتهم ، وتدمع ذاكرتهم إلى الأبد، وتغير هويتهم المستقبلية بطرق جوهرية متعذر تغييرها، ولكنه تضمن أيضا انبثاق الوحدة القومية، وإعادة تأكيد النزعة الأمريكية Américanisme (المبادئ الأساسية التي تركز عليها الثقافة الوطنية الأمريكية) والتعبئة القومية الحقيقية والتبشير المبرر أخلاقيا، وسبب للاحتفال وإقامة القداس.

رابعاً-الوظيفية الجديدة عند نيكولاس لومان:

لقد نظر لومان إلى نظرية بارسونز باعتبارها حدثاً تاريخياً هاماً، لأنها مثلت المحاولة الوحيدة التي بدأت بالعديد من الأعمال الهامة، والمتساوية في أهميتها، ومن ثم قدمت استنتاجاً نظرياً لها...ولم تجرؤ أية نظرية على فعل هذا حتى الآن، أن مثل هذا العمل كان مستحيلاً، ومع ذلك فإن نظرية بارسونز حسب ما يرى لومان، تنقذ إلى مفاهيم "مرجعية الذات" وتخلو من التعقيد، وقد مثل عمله محاولة لصياغة نظرية عالمية أو كبرى للأنساق الاجتماعية تندمج فيها هذه المفاهيم. كما يجادل لومان؛ بأن الأنساق الاجتماعية توجد حيثما كان هناك أفعال ذات معنى لعدة أشخاص، وكانت هذه الأفعال مترابطة، ومن ثم تكون منفصلة عن البيئة ، لأن هدف الفرد في تفاعله مع متغيرات محيطه هو بلورة فعل اجتماعي منسق، وليس بناء نسق اجتماعي من أجل إخراج فعله منتظماً بضوابط محيطه الذي يعيش فيه، عندئذ يستطيع أن يسترشد ويتوجه إرادياً وطاقياً بموجبها نحو أهدافه المستنبطة من محيطه، ومن خلال هذا الانتظام المنسق والاسترشاد المحيطي يكتسب الفرد رموز ومعاني ثقافية مجتمعة، تساعد في تسهيل عملية اتصاله وتفاعله مع الآخرين المحيطين به، وتختصر جهوده الفكرية والسلوكية في التفاهم والتواصل معهم بذات الوقت، تيسر وتبصر رؤاه الاجتماعية للأمور والقضايا التي يواجهها ويتعايش معها .

وبهذا ينشأ النسق الاجتماعي في نظر لومان، من خلال عيش الأفراد متفاعلين ومتراطبين إيجابياً، ومكتسبين خواص محيطهم الاجتماعي بشكل منسق، وهكذا فإن النسق الاجتماعي ينبثق حيثما وجد تفاعل بين الأفراد، وحسب ما يرى لومان هناك ثلاثة أنماط من الأنساق الاجتماعية من أنساق التفاعل (تفاعلات الوجه للوجه للبشر)، وأنساق التنظيم (حيث يتم ربط العضوية بظروف محددة)، والأنساق الاجتماعية (كل ما يطوق النسق الاجتماعي، والمجتمعات الكلية). ولكي يعمل هذا النسق بطريقة فعالة عليه أن يراجع ذاته، لأن النسق قادر على ملاحظة ذاته، وأن يعكس على ذاته وعلى ما يفعله، ويستطيع أن ينفذ قرارات نتيجة لهذا الانعكاس، تمتلك الأنساق المراجعة للذات القدرة على رسم الخطوط الكبرى لهويات ذاتها، أنها تستطيع وصف ذاتها من خلال وضع حدود حسب ما تكون وما لا تكون.

ويوضح ذلك لومان كحالة تقاطع الفرد العصري مع الآخرين في تفاعله معهم، وتصارعه وتطاحنه مع بعض التنظيمات التي ينتمي إليها، إذ يدرك لومان بأن أنساق المجتمع ذاتها تتصارع. ونتيجة لهذا التصارع؛ تفقد أنساق المجتمع وظائفها وأدوارها، مما يفقد المفاهيم والقضايا معناها، ويجعل التوجيهات القيمية غير محددة؛ لأن التوازن هو قاعدتها(لذلك يؤكد لومان أن هذا التقاطع والتصارع بين التنظيمات والأنساق، لا يؤدي إلى تمزق صلاتها أو تكسر روابطها أو انهيار هياكلها، بل إلى تجديد تعليماتها وفلسفتها وأهدافها من أجل المحافظة على وجودها داخل محيطها، ولأن إنشاءات الفرد المتعددة والمتنوعة تقلل من صراعاته خارج حدودها، بسبب انتظام طاقته وإرادته حسب متطلبات العصر وتنظيماته، وإذا حدث أن وقع الفرد في صراع مع إحدى التنظيمات، فإن الأخيرة تسكن وتطفئ صراعه معها من خلال تطوير أهدافها وتعليماتها، و لا تقف في هذه الحالة الأنساق الاجتماعية عند حدودها، بل تنمي وتطور فلسفتها وأهدافها ونظامها الداخلي، لكي لا تخسر أعضائها وتجلب لها أعضاء جدد، لأنها غير متصلبة مرنة ومفتوحة على المستجدات الحديثة والعصرية من أجل مواجهة مستجدات المستقبل، لا تعيش في ماضيها بل في حاضرها ول مستقبلها، مسايرة تطورات الزمن في حركته الدائمة، لكن لا تحصل اضطرابات وفوضى

داخل الحياة الاجتماعية، بل تعالجها وتستفيد من أثارها السلبية والايجابية، لأنها تمنح الفرد خبرة اجتماعية يتغذى بها فعله الاجتماعي في نموه وبنائه.

لأن الهيمنة الأساسية التي يراها لومان للأنساق الاجتماعية، هي اختزال التعقيد الكبير حتى على المعايير المشتركة، أو في تعميم القيمة الطارئة والعاقلة للحياة الاجتماعية المعاصرة، ووضع الفرد فيها من خلال وجود العديد من البدائل والخيارات، والإمكانيات التي تجعل منها أنساق مراجعة لذاتها، وتضع قراراتها من خلال خبراتها بالأمور النسقية ذاتها، لأن المحيط الاجتماعي في نظر لومان، لا يجبر ولا يلزم الفرد على التماثل مع ضوابطه ونواظمه الاجتماعية، بل يترك له الخيار في ذلك، لكي يستخدم تفكيره في اختبار وانتقاء المعايير والنواظم المحيطة التي يراها، لتحصر زمن وصوله إلى أهدافه المحيطة، بذات الوقت يسهل عليه عملية التفاعل الاجتماعي، لكي لا يهدر طاقته ووقته في تفاعله مع الآخرين ، بتعبير آخر، يكون تفاعله مثيرا أو بناء. معنى ذلك أن التكامل الاجتماعي؛ لا يتبلور من خلال الالتزام بالنظم والقوانين، والتماثل مع أهداف التنظيم بشكل قار، بل من خلال قدرتها على امتصاص الاختلافات والمواجهات والتناطحات المحتملة، وجعلها بشكل يخدم تطور الحياة وليس قادتها أو مالكتها أو رؤساءها، والأقلية المنتفعة منها، وإن حالة التكاثر وتنوع التنظيمات تعمل على تفعيل الفعل الاجتماعي بشكل منسق ومنتظم.

وعموما نقول: أن الوظيفية الجديدة تمثل عملا راشدا في إحياء التنظير الوظيفي، الذي يتضمن نقد الأعمال الأصلية وإعادة تفسيرها، أكثر من كونها محاولة لإعادة الجدل الذي كان دائرا في خمسينيات وستينيات القرن الماضي. ومع ذلك، فإن إعادة الحيوية للتنظير الوظيفي في الثمانينات من القرن الماضي، ونقد وإعادة تفسير أطروحات بارسونز من قبل الوظيفيين الجدد خلال التسعينيات، فإننا نتوقع أن يستمر حتى نرى تطورات جديدة وتوسعات في هذا المنظور.